اجتهادات
البشرُ فى الغابة

العودةُ إلى حياة الغابة. الخضوعُ لشريعة الغاب. عبارتان يكثرُ استخدامهما للدلالة على ممارساتٍ وسلوكياتٍ توصفُ بأنها وحشية، والتنبيه إلى أنها تنطوى على خطر العودة لمرحلةٍ مبكرةٍ فى التاريخ يعتقدُ البعض أن البشر كانوا يقتلون بعضهم بعضًا فيها طول الوقت. ليس معروفًا إلى أى مدى ينتشرُ هذا التصورُ للمراحل البدائية فى تاريخ البشر، التى يُطلقُ عليها أحيانًا حياة الطبيعة، حيث كان الكائنُ البشرىُ هائمًا على وجهه يلتقطُ ما يسدُ رمقه، ويعيشُ فى أماكن تُشبه ما تُسمى اليوم غابات، قبل أن يحدث التطورُ التدريجىُ الذى أدى إلى تكوين التجمعات الأولى الصغيرة. ولكن ظاهر الأمور يدلُ على أن هذا التصور منتشرُ على نطاق واسع. وكثيرةُ الكتابات التى تدلُ عليه، وربما آخرها كتابٌ قرأتُ عنه، ولم أطلع عليه بعد، للكاتب الأمريكى روبرت كاجان. عنوان الكتاب يُفيدُ معنى أن الغابة تنمو مرة أخرى (The Jungle Crows Back), للدلالة على فرضية مفادها أن النظام

العالمى الذى أعقب الحرب الثانية انتهى وخلف وراءه فوضى تُشبهُ الغابة. ولكن هذا ليس التصور الوحيد للغابة. ثمةُ تصورٍ آخر ربما يجوزُ القول إنه أكثر عمقًا، وكان فى بدايته جزءًا من رؤية فلسفية للطبيعة البشرية طرحها الفيلسوفُ المُبدعُ جان جاك روسو فى كتابه (خطابُ فى أصل التفاوت وأسسه بين البشر). فقد تصور روسو أن الفوضى بدأت عندما فرض الأقوى هيمنتهم على الأضعف، وامتلكوا الأرض التى كانت مشاعًا, وليس العكس. وعندئذ (انتهت المساواةُ لتبدأ ضروبُ من الفوضى) وفق تعبيره. لماذا؟ (لأن الأكثر قوة حولوا قوتهم إلى حقٍ فى امتلاك ما استطاعوا وضع أيديهم عليه.. فتلاشى إحساسُ التحنُن الطبيعىُ لديهم مع اكتساب خصائص الطمع والجشع والبطش ..). وهذا تصورُ يقومُ على استنتاجٍ عقليٍ مرتبطٍ برؤيةٍ معينةٍ للطبيعة البشرية، مثله فى ذلك مثل نقيضه الذى يجادلُ أصحابهُ بأن حياة الطبيعة فى الغابة كانت وحشية. تصوران فكريان متناقضان لم يُدرسا علميًا بعد دراسةً عميقة, لعدم وجود وسيلةٍ منهجيةٍ للتيقن مما حدث تحديدًا فى مراحل ما قبل التاريخ المكتوب والمُسجل بطرق مختلفة .